# شرفات

ربيحة ريحان *

" تلك الصدفة التي حبكتها الريح"، في مساء صيفي شفيف، قلق كمساءات سواه، مبلّل بكثافة تحاصر الهواء، هيأت لي أن أترصد من الظلام العالي في بداية خريف دافئ - بقلب لم أعهده خافقاً على هذا النحو - ذلك المدى المفتوح، المشكّل من التماعات أخاديد منشورة، تجاوز أحياناً بصري، إذ تنعطف بي الطائرة التي تلتهم الليل وأسراره الكبيرة استعداداً للهبوط.

حين علق المضيف أننا فوق بيروت، وما يلي ذلك من مستتبعات الاستعداد، هدأت ثرثرتي أنا وعروسية، خرسنا، إلا الراكب القابع أمامنا، فاتحنا بإضافات مغربة عن الأرض التي ستطأها أقدامنا بعد قليل، متعمداً أن يبقى رأسه المزروع بشتلات دقيقة متفرقة من شعر اصطناعي، جانبياً، جهة النافذة، قافزاً بصوته المتزن على الهدير الخافت صوتنا، مشدداً تحديداً على رسم الاتجاهات بحركة كفه البلقاء، قطعنا داقعه غير المعلن كان التقاطه نبرة حديث لم يستقم في مسامعه طيلة فترة العبور.. أكنا هتكنا جلال وقته المديد برطانة لهجتنا البعيدة القاسية من غربيّ جغرافيا وطننا الكبير؟!!

كنت أسمع ولا أسمع كل تفصيل إضافي، عادي أو مثير، لا يقود إلى مجاوزة ذلك الاحتمال، لا يبدد القلق الراسخ الفظّ، الذي أحدث العطب في الأعصاب، إنني سأرى بعينين قويتين، وبانكسار فاضح، كيف كان سباق من رياح دموية مختلطة يتلاعب بهذا المفتوح أمامي في هذا الليل الناعم.. وما كان صخب العبور في القاعات الوسيعة لمبنى المطار أن يحجب ظلال الحسارات المرتسمة بتكاملها. كانت مفضوحة من غير استجلاء، وغير قادرة على أن تتقنّع.

حين أنهيت روتين العبور، كان القلق عالقاً لا يزال بأوتار عصبي، يتقاسم قلبي بجسارته وحمّاه معاً، وسط انتظار كبير، لتهيز كامل للوفد، وإذ استتب الأمر للجمع أن ينطلق، وسط كلمات ترحيب دافئة، وجدتني بأحاسيس خفية وعجلات السيارة الكبيرة في تقدمها البطيء، أبحث بعيني عبر كل منعطف وآخر.. بما عنّ لي أن أحشر به ذاكرتي، في زمني الممزق التباعاً وحسرة على بيروت.. وطوال الطريق العاري، لم تشغلني الأقنية التي تشق، ولا أغصان الشجيرات الشعثاء التي يجللها الغبار.. كانت نظرتي تستقرئ الحيطان وفراغ الأبنية، عن عذابات وعيت الوقت المفتون بشقاقات وخلاف وخيانات وتوطئات ومآلات، وصمود قد عار أيضاً إلا من جسارات على صون هذا البلد بالأحداق.. لكن الليل المموه الراكد، أخفى بتألق سواده المحبوك ثقل الفجيعة وأجلها للصباح، وظللت أقلي على نحو متفحص دوامة الأنوار، وأقرأ إعلاناتها التي شدتني إليها لمحاً دعوة مفتوحة بألق أبيض خافت " أدونيس للتسلية"، فعيثت بي العبارة ذات النكهة الساخرة في إحساسي، وجعلتني أبتسم كتعليق بما يليق للإيحاء الداخلي لفحوى اللافتة!..

مكشوفة بيروت كانت في الصباح، متنفذة بحضورها، بذلك الكبرياء والقلق والإرباك، وبرغم ما يشغلني من أسئلة حائرة خرقاء تلتف حولي، ما كان أمامي أنا وعروسية ثانية، إلا أن نتجاوز تلك التلة من المسلحين في مواقعهم أمام النزل، وتشوغل من غير دليل، نستقصي خط تنقلنا بعشوائية مدروسة لا تجاوز اتجاهين متوازيين، لا خوفاً من ضياع، لكنها رهبة مدنية يدبت بجسدها ذلك القدر الهائل من الذعر والإبادة!..

أي تحديد شكلي تهبه الشوارع والمداخل والشبابيك والأدوار والكوى؟! ذاب القلق فلم يبق ما يدل على سطوته، وانسد أفق التصورات والتخمينات، وغاب أيضاً ما اختزنته الذاكرة، من شعاع الشاشة وهي تقفز بالصور التي ينطلق منها الهلع والعويل والرصاص، وتعلق البصر بحكايات ذات أنين خرقت الحيطان والأرواح، وثقبتها بحقد لا يخلو من سخرية وهز..

لم تتجول طويلاً، كنت أخطو وعيناي على الجدران، أعاين بقلب تعب ألسنة الهباب كطلاء أسود يجلل الرقع في الأسفل والأعالي، والأروقة الخربة الموحشة في جوف الأبنية الصامتة، تلك مشاهد مهدت لتعاقبات تلتها سوف لن تخلو من وطأة إكبار!..

ما الذي يمكن أن أعقب به الآن، أنا التي أرجأت الكلام والانفعال الذي اصطخب في أعماقي مرات، كي أظل قادرة من مسافة إشراقي على الذي أراه، على تمثل ذلك الوجع الذي يتشظى ناراً تلذع الأحشاء؟!..

الجنوب الذي زرناه في مدار مهيب، مخلفين وراءنا الأفق الغربي حيناً، إلى أن عبرنا السهوب والتلال التي تغطت بدثار من الحجارة والعشب الأخضر، في المدى الأسر الحميم بين بيروت والنبطية، مروراً بصيدا وصور، والقرى

* قاصة من المغرب

المتناثرة، التي تنبثق عند المنعرجات، أو تتراءى ببياضها الكثيف مبتوثة على خاصرات الهضاب والمرتفعات بدا متشحاً بأصداء دوي، وحفيف أرواح باغتها ذعر بربري، والحديث عنه كان حنوناً مضاء بكل المجد وكل البهاء. الذين حكوا عنه رووا نثار حكايا عن كابوس الحرب وضراوة القتال، كانوا من قواقعهم المتعددة يشيرون واثقين إلى تلك البرهات الأشد كثافة وثقلاً في الذاكرة، مودعين أحاديثهم ذلك القدر الهائل من الزهو اللامتناهي، وعلى مشارف خطوط التماس كانت وقفتنا مربكة، جلية الذهول والتوتر ودمع العين، كنت أقلى المرصد العالي، البعيد نسبياً، المعلق على كتف الربوة، إذ أرعدني نشيج خفيض آت من الجهات كلها، كانت لحظة عسيرة تلك، وسمعت الصوت المرتعش يجاوز كل الأصوات في استنكار حار، بينما كنت أجاهد أن أطرد من خيالي صورة الجندي الاسرائيلي التي ارتسمت سريعاً ببرجه هناك راصداً بصفاقة حركتنا المتسوجة من حنق.

وحده، تهيئة الاحتفال برموزه الفكرية والسياسية، بمبدعاته ومبدعيه، كان الغمر الذي ذابت في دفئه فداحة وحشة الأحاسيس العابقة بثقل الخسارات والانكسار، وخلل أزمنة الردامة العربية..

حين كانت الظلال تنحسر تدريجياً باتجاه الخيطان والسقوف البعيدة، كنت مجيرة كغيري- تحت أصداء تراتيل دافئة تجلل سماء النبطية - على العودة بأعماق ليس في وسع أحد تحديد ذلك المقدار من القلق الذي يأسرها، ولا الانبهار المنسرب لحظة بعد أخرى، إذ تسنى لي أن أدرك روعة ولع وإقبال هذا الشعب على صنع أسطورة الحياة..

كنا نلتف على الجهة الخلفية للمدينة، باتجاه طريق العودة، عندما سمعت من مكاني لصق النافذة، التي كنت أتطلع منها إلى المدى المكشوف الذي أحببته، صوتاً أربك تأملي، كان الصوت القلق القادم عبر الميكرفون والذي أثار ضوضاء محتدمة متداخلة يعلن بوحشة أن القصف بالقرى المجاورة قد بدأ منذ أكثر من ربع الساعة، كانت الأصوات قد التحمت، ولشدة حنقي لم أستطع تطويق الجلبة بعيني كيما أقلى مقدار الروع أو الإجفالة أو الانفعال الغاضب.

وحين كان المساء يهبط في انسياب، كنا قد قطعنا مدى زمنياً جسوراً، أقلّ أوجاعنا إلى حيث فسحة أكثر دفئاً، بحنايا مكابرة قادرة على أن تغمر الياس العائد برفق، بدفق من فرح.

سمعت في المقدمة أهزوجة تونسية، قدرت أنها زهرة تؤدي مقاطعها بنبرات حانية، ترددت مقاطع أخرى بأصوات نسائية ورجالية، تهدأ وتعلو، دوى التصفيق أحياناً، وكنت لا أزال أقبض بشرود على ألمي الخفيف إذ جاءتني الدكتورة رضوى من الأمام مبتسمة، غمرتني بصفائها الغريب وقالت:

- ربيعة لا تخذليني!..

وجف قلبي وصرت أضحك.

- والله لا أعرف..

كنت أرد عني ثقل المفاجأة بالضحك..

ذات فسحة ونحن نعبر شطري بيروت وكنت إلى يمينها بالسيارة المسرعة، مأخوذة كعادتي بسحر فيروز، ولعلني من كوامن الجاذبية فيه، رحت في استسلام المحرش بالصوت العذب، المنطلق من الشريط مرددة في اختلاط بعض الشذرات، أحقاً كنت أغني؟!.. وللأسف، خذلت طيبة هذه المرأة وتواضعها الرائع..

الزيارات والقسح التي تعلن عن نفسها بغتة في الهدوء الليلي المشوب في أعماقي بخوف غامض، كانت تبتكر لذاتها ثقلها وخاصياتها التي لا محيد عنها، وأنا كنت أبحث عن عشايا باختلالات وثيقة، أتسكع فيها طويلاً تحت ليل وريح ومطر بيروت الذي هل في المساء الخامس في ذلك الخريف إن كنت أذكر.

كنت أبحث عن مداخل تستسلم لمداهمتي وتبهي، أتشمّم فيها نسغ ذلك القلق الذي يحاصرني بذلك الاختراق الوجداني الرائع، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل أبداً، لتواتر الانشغال، وللتداخل الكبير للاستثنائي المشوش، الذي لا زال يجلل فضاء هذه المدينة الجريحة، حتى دعوة الظهيرة التي تلقيتها من الرفيق زهير، لم تكن بالتقديرات ذاتها، وإن هيأت لي - أنا ورفيقتاي- أن نستكنه ضراوة مسارب الألم عن قرب.

موجع ذلك الاستدراج والتطلع بشكله المشهدي، كل الأنقاض تنشأ في مرارة وعناء، وكنت وأنا أرنو بفجع إلى بقايا المتاريس، وإلى الأعمدة الأسمنتية الضخمة المقوضة تماماً، والتي تشابكت قضبانها الحديدية القوية واستوت بالأرض، أتخيل، أي سعار حقيقي هز هذه الأمكنة، لتختلط وتتمازج على هذا النحو الفاسي!..

باقتدار كان الرفيق زهير يذرع بنا المسافات والأوجاع، يحكي باحتدام وبلا توقف عن العيني الفاجع الذي يرويه مطلاً برأسه وذراعه من السيارة، ونحن نسلك معابر ترابية، أو نقف قرب صفوف الأسلاك الشائكة التي تسيج الدمار، وفي المطاردة الشقية لصور الأحداث كان يكتم اعتمالاً جارفاً لحرقة في الأعماق، لرفاق سلاح وقمر، لأحبة استشهدوا وذبحوا على قارعة الطريق، ذات قصف عشوائي طويل، أماكن بعينها، بمقاتليها المدججين المتسللين عبر منافذ النار والدخان، لأجل تخفيف حدة القصف، كنت أراهم يتهاوون شامخين، ترتج من عنف سقوطهم الأصداغ، وكان الرفيق يحصر وهج اللحظات العصبية الخاطفة بلوعة تحت رفيف تساؤلاتنا المرتعشة التي كانت تلقي بتفاصيل الذاكرة إلى أبعد مما نرى.

مشاهد عديدة، ومداخل صامتة متمرسة تسبح في السخام، مغرمة بأصداء طلق وحشي، كانت تتبدى عند انحدارنا بطريق العودة، نحو النزل الصغير الهادئ بالحمرا، يحرس في كسل مداخلها المهجورة مسلحون بصباهم الغض، يقفون عند الأدراج العارية.

في الليلة الأخيرة، وفي وقت متأخر من تقويم زمني معدل بساعة إضافية كهدية بديعة من سماء بيروت الهادئة، فتحت لآخر مرة شرفة غرفتي وأطللت، لم أفعل ذلك من قبل سوى في الليلة الماطرة، ساعتها مددت بصري في اتجاه السكون، لكن الأبنية المرصوفة صفوفاً متقابلة ظللت الأفق أمامي، وحجبت أمداءه الندية، كنت أحلم بالتزود بنظرة مديدة أخيرة، أسقط ظلال بهائها لحظة إثر أخرى، وأنا أودع هذا المدى - العالق مرآه أبداً بنسيج الذاكرة - قدراً من الهوس الذي يسكن دمي، قبل أن أمضي بعيداً على هدير الطائرة، ووطأة المحركات.

# في المسألة التشكيلية

## قراءة النص البصري وإشكالياته

محمد العامري

النص البصري مجموعة من المنظومات المكونة من الخطوط والايقاع والملمس والفراغ والتركيب، والإنشاء، ضمن سياق يحكمه نظام ظاهري ونظام باطني (داخلي)، مصاغ ضمن حساسيات وأفكار تتحكم فيها عدة عوامل.

أ- مرجعية المنتج نفسه.

ب- البيئة البصرية للنص.

جـ- معطيات النص.

د- المعتقد الفكري للنص.

هـ- التراكم البصري [من خلال المشاهدات المنسجمة والمتباينة والقراءات].

ومن خلال هذه العوامل يتم التجاوز في التقدم والانحسار الابداعي، معتمداً في ذلك على قدرات المبدع (المنتج) في تجاوز المطروح والسائد. وهناك إشكاليات صدامية بين النص البصري المطروح والمتلقي، وهذا الصدام لم يتأت من فراغ، بل هناك عوامل ساهمت في انتشار الأميّة البصرية، وإن صيغة هذا الصدام ناتجة عن خلل في العمل نفسه والمبدع كذلك: فمعظم التنازلات التي يقوم بها المبدع في عمله تؤدي إلى ردة في التلقي، بحجة الحداثة واختراع أساليب جديدة تحكمها التنازلات دون ثوابت، وديمومة في الطرح، فيقع المبدع في انجاز عمل فنّي يتوافق وذوق الجمهور المتدني، وكأنك أمام إبداع يقع تحت باب "ما يطلبه المشاهدون"

ومن خلال هذه الصيغ يحاول المبدع أن يتحايل على مفرداته لتوصيلها دون الإيمان الحقيقي بها، وغالباً ما تكون هذه المفردات واقعية جداً، مستندة إلى المرجعية الطبيعية للعين (المشهد الفوتوغرافي للطبيعة وللأشياء)، وهذا يقودنا إلى تكريس نمط معين من التذوق والفهم لدى الجمهور، ويصطدم المشاهد من خلال مشاهدات منافية لما اعتادت عليه عينه، كأن يشاهد عملاً يعتمد على التراكيب المعقدة والمختزلة التي تحتاج إلى تأويل صحيح من عدة زوايا بصرية وذهنية في آن واحد. فالعمل الفني المعقد والمركب والمجرد بحاجة إلى ثقافة بصرية عالية ومرجعيات ومقدرات يستطيع من خلالها أن يستمتع بهذا العمل أو ذاك؛ فالمنهاج المدرسي مثلاً -أقصد التربية الجمالية للمشاهد- هو تربية جمالية ناقصة ومتخلفة تنقصها الأمثلة الحية الحقيقية لتأسيس تلك الذائقة. والتربية الجمالية الناقصة أو المعدمة تؤسس جمهوراً تراكمت في بصره حساسيات خاطئة اتجاه النص البصري وكيفية قراءته والاستمتاع به. وهناك أمثلة كثيرة يستطيع الانسان أن يرصدها ضمن هذا السياق وأود أن أضرب مثالاً من باب آخر، وهو الذائقة السمعية: كأن تأتي بأذن لم تسمع بالموسيقى المركبة وتدلق في صحنها الكم الهائل من

الطبقات الصوتية والنوتات المركبة والمعقدة فيخرج السامع بحكم شبه قطعي على سوء هذه المقطوعة، وهذا ليس عيباً في المقطوعة ذاتها وإنما عيبٌ في التذوق لأن هذه الأذن لم تُؤسَّس بصورة صحيحة لتذوق مثل هذه المقطوعات. وهذا ينطبق تماماً على المدارس الفنية البعيدة عن التصوير الواقعي للأشياء. فالمشاهد لدينا وضع في بيئة فنية جديدة لم يألفها من قبل وخلال اصطدامه بالنص يعزى القصور إلى العمل الفني وهذا غير صحيح، ولمعالجة هذا المأزق لابد من وضع آليات حقيقية على جميع المستويات للارتقاء بالذائقة الجمالية والقضاء على الأميّة البصرية من خلال:-

أ- تطوير المنهاج التعليمي ابتداءً من الروضة وانتهاء بالجامعة ويكون هذا المنهاج مادة أساسية وليست ثانوية.

ب- اهتمام وسائل الإعلام السمعية والمرئية بالثقافة الجمالية من خلال برامج منظمة ومدروسة.

جـ- الزيارات المنظمة للمتاحف والمعارض التي تمتلك المستويات العالية.

د- إدخال مادة التربية الفنية في منهاج الشهادة الثانوية العامة كمادة رئيسة بحجم أهمية مادة الرياضيات والمواد الأخرى.

كل هذه المعطيات هي اللبنة الرئيسية لبناء مشاهد واعٍ يستطيع أن يتجاوب مع أعقد النصوص البصرية وفي هذا السياق لا أضع اللوم على المشاهد نفسه بل هناك مسؤولية حقيقية أمام الفنان المنجز للعمل الفني فهناك كثير من الفنانين يقفزون في الهواء ويطلبون من المشاهد أن يفسر ويتجاوب مع هذياناتهم التي لا تستند إلى أسس فنية وعلمية، كأن تشاهد فناناً ومنذ معرضه الأول يشتغل ضمن المدرسة التجريدية وهو لا يستطيع أن يرسم آنية بأبعادها الصحيحة، وأود هنا أن أحذر الفنانين الشباب بالابتعاد عن هذه القفزات فهناك مراحل وخطوات يجب أن يمر بها المبدع وأعني بذلك (ألف باء اللوحة الفنية) حتى يستطيع أن يؤسس لنفسه صيغة مقبولة يستطيع من خلالها الدفاع عن عمله. وقد أسهم هؤلاء الفنانون في تشويه صورة اللوحة لدى المشاهد من خلال الادعاء الباطل بغباء المشاهد الكلي فبيكاسو مثلاً لم يجرؤ على تحطيم النسب إلا من خلال اتقانه التام لأوليات التخطيط الواقعي وبناء العمل الفني وضمن نظريات واضحة داخل اللوحة وكذلك السرياليون عندما ارتكزوا على نظريات علم النفس، وهذا ظاهر في بيانهم السوريالي، فكل تحطيم وابتكار لا يتأتى إلا ضمن تجارب طويلة ومضنية تتمخض عنها نظريات جمالية وفنية واضحة بقوانينها وتنفيذها. لنتفق إذن بأن الاشكالية تتعلق بطرفين، المشاهد والفنان وعلينا أن نجد الصيغة الحقيقية لمعالجة هذه الإشكالية من خلال التزام الفنان تجاه عمله الفني والارتقاء بالمنهاج التربوي وتعميم الحالة من خلال السياق الاجتماعي خارج إطار المعتقد الجاهز للحكم.

**دور المؤسسات العامة والخاصة في تطوير الحركة الفنية وتعميمها**

هناك إشكاليات واضحة في صيغة المؤسسة الراعية للفن وبشكل محدّد: المؤسسات الخاصة، التي تحكمها في الأغلب المرجعيات الأيدولوجية وبثها من خلال إطارها المعلن خارج إطار رسالة الفن ذاتها. وقد وقعت عدة مشاكل في التنظيم بين هذه المؤسسات من خلال عدم التنسيق في البرامج وعدم العمل ضمن استراتيجية وطنية واضحة تساهم في انجاحها جميع المؤسسات العامة والخاصة ويكون ذلك ضمن هدف محدد وواضح من خلال أهداف مستقبلية خارج إطار الآنية، وقد ساعد عدم التنسيق في انتشار الفن الردي. ولا ننكر أن بعض المؤسسات قد انتبهت لهذه الفوضى وقامت بضبط العروض والاهتمام بالنوع خارج نطاق الكم، ومن ضمن الخلل أيضاً عدم استعانة هذه المؤسسات وخاصة صالات العرض بمستشارين للمعارض أسوة بالصالات الراقية التي تحترم أهدافها ورسالتها. وضمن هذا السياق فقد شكلت وزارة الثقافة في الآونة الاخيرة لجنة متخصصة لاختيار العروض في صالات المركز الثقافي الملكي إيماناً منها بأهمية هذا الجانب. ولا ننكر بأن بعض صالات العرض استطاعت أن تنتج حالة من الحوار المتطور من خلال المحاضرات النقدية وعرض الأفلام على هامش المعارض، وهذا ساعد في تثقيف المشاهد، ومساعدته في تطوير ذوقه الفني، ووزارة التربية التي تحتوي أعداداً كبيرة جداً من الطلبة (المشاهدين) يمكن أن تلعب دوراً كبيراً في تطوير الحركة، والرقي في الذوق الجمالي، من خلال إعادة النظر في مدرّس التربية الفنية والمنهاج، وقد ساهمت كذلك جامعة اليرموك في رفد الحركة التشكيلية بكوادر متخصصة استطاعت وزارة التربية أن تحتويهم ضمن خططها في التربية الجمالية والفنية. وأخيراً لابد من ذكر توصيات للارتقاء بالحركة الفنية في الاردن

أ- التنسيق فيما بين المؤسسة الرسمية والخاصة في إنتاج حالة فنية راقية بعيدة عن الارتجالية والعفوية.

ب- نشر سلسلة من كتب النقد الفني المحلي والعالمي في آن واحد.

جـ- مراقبة العروض الهابطة من خلال لجان استشارية متخصصة.

د- الاهتمام بظروف العرض.

هـ- تفعيل النشاط اللامنهجي في المدارس والجامعات، والأندية.

و- تنظيم معارض جمالية راقية ضمن برنامج سنوي محدد.

ز- تنظيم تظاهرة فنية دولية بالتعاون مع المؤسسات الخاصة والعامة.

ح- إيفاد نقاد وفنانين للخارج ضمن دورات تنشيطية (إعادة تأهيل نقدي).

ل- زيادة الدعم المالي للفنان من خلال المؤسسات الوطنية المالية الخاصة.

س- تفريغ الفنان لانتاج مشروعه الفني ضمن خطة وطنية هادفة.

ص- إنشاء كلية خاصة بالفنون الجميلة وكلية للدراسات العليا.

# إعادة محاكمة شايلوك

مشهد مسرحي

أ.محمود البنا *

المكان: قاعة صف جامعي، خمسة عشر طالباً يجلسون في بضعة صفوف، خلف الصفوف نافذة كبيرة يدخل منها هواء الصيف الحار وأصوات سيارات كثيرة وقهقهات. أمام الصفوف يقف أستاذ متكئاً على منصة وأمامه ورقة يسجل عليها أسماء الغائبين وتاريخ اليوم، خلف الأستاذ لوح أسود كبير مليء بأبيات من الشعر العربي وعبارات غزل باللغتين العربية والانجليزية، يرفع رأسه عن الورقة ويدسها في كتاب أمامه، يعتدل في وقفته، ويتنحنح في صوت خفيض مسترعياً انتباه طلبته لما سيقول:

- الاستاذ: محاضرتنا اليوم عن شاعر بريطانيا العظيم وكاتب المسرحيات المشهور الذي مازالت مسرحياته تعرض في جميع أنحاء العالم منذ القرن السابع عشر إنه.. ( وتوقف متفحصاً طلابه لمعرفة مدى إلمام الطلاب بالموضوع قيد البحث.. لكن الرؤوس تطأطأت وتجنبت أنظار الطلاب نظرات معلمهم.. وران صمت عميق قطعه الأستاذ ).

- الاستاذ: إنه وليم شكسبير أيها الآنسات والسادة.. كاتب مسرحية روميو وجولييت.....

( همهمات من الطلاب.. آه ... آه (تدل على أنهم استدلوا الآن على هذا الكاتب)..

- الاستاذ: وهاملت، وعطيل! وهو أيضاً كاتب المسرحية التي سنتدارسها في هذه المحاضرة والمحاضرات القادمة. إنها مسرحيته الكوميدية " تاجر البندقية".

( يسكت الأستاذ فجأة ويثبت عينيه على عنوان المسرحية التي بين يديه، ثم يرفع رأسه وينظر في عينيّ إحدى الطالبات فتخفضها، ويصيح بها كأنه اكتشف شيئاً فجأة:)

- الاستاذ: ما " البندقية" ، يا أنسة، في هذا العنوان؟

- الطالبة ( باضطراب): أنا يا أستاذ؟

- الاستاذ: نعم، أنت، يا أستاذة!!

الطالبة (متضاحكة ومتسائلة): أليست قطعة سلاح، يا أستاذ؟

( وسط تضاحك بعض الطلاب ثبت الاستاذ نظراته على الطالبة مغتاظاً)

- الاستاذ: إنها فينيسيا، أيها الآنسات والسادة، مدينة أطلق عليها العرب اسم البندقية، لا أريد أن أسألكم لماذا أطلق عليها العرب هذا الاسم، ولكن أريد منكم أن أعرف أين تقع هذه المدينة؟

( أحد الطلاب يرفع يده بسرعة وهو يقول " أنا، يا أستاذ." فيشير إليه الأستاذ لكي يجيب).

- الطالب: إنها طبعاً في انجلترا مادام الكاتب انجليزياً.

- الاستاذ ( مغتاظاً): بالطبع لا

( طالب آخر يرفع يده، فيشير إليه الأستاذ)

* كلية الآداب - جامعة فيلادلفيا

- الطالب: تقع البندقية في فرنسا.

- الاستاذ ( حانقاً على جهل الطلاب): البندقية أو فينيسيا مدينة إيطالية فيها تقع حوادث مسرحيتنا، وقبل أن نبدأ في دراسة هذه المسرحية، أرى أنه يجب علينا أولاً أن نشرح كيفية تحليل العمل الأدبي، لا سيما القصصي منه.

( يتوقف الاستاذ لبرهة، ويلتفت إلى اللوح، فيؤثر سلامة رئتيه وعينيه ثم يستأنف الشرح)

هناك ثلاث مدارس أو طرق لتحليل القصة، الطريقة الأولى هي تحليل عناصر القصة: من حيث الحبكة الروائية، الشخصيات، مكان القصة وزمانها...و... وهذه الطريقة في التحليل هي الطريقة السائدة في تحليل الأعمال الأدبية في المدارس والجامعات، لكننا لن ننتهجها في معالجتنا لهذه المسرحية.. بل سنلجأ إلى المدرسة الثانية بصورة رئيسية! وتعالج هذه المدرسة موضوع العمل الأدبي أي " حول ماذا يدور العمل؟" فالتركيز هنا ينصب على التجربة الإنسانية، والعلاقات الإنسانية وطبيعة الإنسان والقيم الإنسانية.. وهذه جميعها تتجلى في " تاجر البندقية"، لقد صور شكسبير المرابي " شايلوك"، أو كما يدعوه العرب " شيلوغ"، بصورة شيطان، حيث جرده من قيمه الإنسانية عندما جعله يفرض شرطاً جزائياً على " انطونيو" الذي استدان منه مبلغاً من المال، وهذا الشرط يقول إنه إذا لم يدفع انطونيو المبلغ في الوقت المحدد فإنه يحق لشايلوك أن يأخذ حوالي نصف كيلو من لحم انطونيو.

وبالطبع لم يستطع انطونيو أن يسدد دينه في الوقت المحدد. فطالب شايلوك بتنفيذ شرطه الجزائي لدى محكمة في البندقية! وكان جو المحاكمة عدائياً لشايلوك، الكل ضده: فشكسبير عيّن محامية هي صديقة لانطونيو متنكرة بصورة محام.. حتى.. انطونيو نفسه لم يعرفها. عرض الدفاع أضعاف مبلغ الدين إنهاءً للقضية، ولكن شايلوك أصر على تنفيذ الاتفاق بحرفيته، وهو اقتطاع نصف كيلو من لحم السيد انطونيو. وإزاء هذا الموقف المتشدد لشايلوك وافق الادعاء على طلب المشتكي، لكن بشرط ان يقتطع الوزن المطلوب بلا زيادة او نقصان، ليس هذا فحسب بل أضاف شرطاً تعجيزياً آخر هو أن يتم اقتطاع القطعة المذكورة دون إراقة قطرة واحدة من دم النبيل انطونيو. مسكين شايلوك! كيف يستطيع ان يفي بطلبات الدفاع هذه؟ لا بد له إذن من أن يقبل بالمبالغ التي عرضت عليه سابقاً، فرفض الدفاع، لا بد إذن من تنازل آخر: أن يرضى برأسماله ورفض أيضاً طلبه، وكانت المفاجأة: قررت المحكمة مصادرة جميع أموال شايلوك نصفها لأنطونيو ونصفها للدولة، عند ذلك صرخ شايلوك: لقد أخذتم دعائم حياتي فلماذا تبقون عليها!

( يصمت الاستاذ لحظات.. ليلتقط أنفاسه فتنخفض العيون التي كانت تنظر إليه كي لا يرى فيها الاستاذ مسحة التأثر).

- الاستاذ: الآن لننظر إلى المسرحية من وجهة نظر النهج التاريخي، لقد عكست المحاكمة الجو العام المعادي لليهود في المجتمعات الاوروبية منذ قديم الزمان، لكن التاريخ تغير وتبدل. فالعدو صار صديقاً والغريب صار أخاً، لأن الأحكام تتغير وتتبدل، فاليوم يجب أن ينظر إلى شايلوك على أنه ضحية مؤامرة دنيئة نسجت خيوطها كراهية عمياء، كما يجب أن يغير تصنيف هذه المسرحية من كوميديا أو ملهاة إلى تراجيديا أو مأساة، فالتاريخ كما قلنا قد تغير؛ كان قديماً يتحكم في مجريات التاريخ أكثر من أمة .أما الآن فهناك أمة واحدة تتحكم بمصائر الأمم الأخرى، ولا رادّ لما قضت . و...

( ينظر الأستاذ إلى ساعته فيلاحظ أن وقت المحاضرة قد انتهى منذ ثلاث دقائق! يغلق الكتاب المفتوح أمامه على شخصيات المسرحية، يغلقه بعصبية، دون أن يقول جملته المعتادة Have a nice day يومكم سعيد. يغادر الصف والكتاب في يده يرتجف)

# أبواب ثابتة

- تصوص تراثية (باب الضنى)
- غواص (لغة)

ابن حزم
سليمان عليوات

# باب الضنى من طوق الحمامة

لابن حزم

ولا بد لكلّ محبٍّ صادقِ المودّة ممنوعِ الوصل - إما ببيْن وإما بهجر وإما بكتمانٍ واقع لمعنى - من أن يؤول إلى حدّ السقام والضنى والنُّحول، وربما أضجعه ذلك؛ وهذا الأمر كثير جداً موجودٌ أبداً.

والأعراضُ الواقعة من المحبة غيرُ الأعراض الواقعة من هجمات العلل، ويميزها الطبيبُ الحاذقُ والمتفرّس الناقد؛ وفي ذلك أقول: (من الوافر)

يقول لي الطبيبُ بغيرِ علمٍ ... تداوَ فأنت يا هذا عليلُ

ودائي ليس يدريه سِوائي ... وربُّ قادرٌ ملكٌ جليل

أأكتمُه ويكشفُهُ شهيقُ

يُلازمني واطراقٌ طويل

ووجهٌ شاهداتُ الحزنِ فيه

وجسمٌ كالخيالِ ضنى نحيل

وأثبتُ ما يكونُ الأمر يوماً

بلا شكٍّ إذا صحّ الدليل

فقلتُ له: أبِنْ عني قليلاً

فلا والله تعرفُ ما تقول

فقال: أرى تحوّلاً زاد جداً

وعلّتك التي تشكو ذُبول

فقلتُ له: الذُّبولُ تُعدُ منه ال

جوارحُ وهي حُمّى تستحيلُ

وما أشكو لعمر الله حُمّى

وانّ الحرّ في جسمي قليل

فقال، أرى التفاتاً وارتقاباً

وأفكاراً وصمتاً لا يزول

وأحسبُ أنها السوداءُ فانظرْ

لنفسكَ إنها عَرَضٌ ثقيل

فقلت له، كلامُك ذا مُحالٌ

فما للدمع من عيني يسيل

فأطرقَ باهتاً مما رآه

ألا في مثل ذا بُهت النبيل

فقلتُ له، دواني منه داني

ألا في مثل ذا ضلّت عقول

وشاهدُ ما أقولُ يُرى عياناً

فُروعُ النبت إن عكسَتْ أصول

وترياقُ الأفاعي ليس شيءٌ

سواه ببرء ما لدَغَتْ كفيل

وحدثني أبو بكر محمد بن بقيّ الحجري، وكان حكيم الطبع عاقلاً فهيماً، عن رجلٍ من شيوخنا لا يمكنُ ذكره، أنه كان ببغداد في خان من خاناتها فرأى ابنةً لوكيلة الخان فأحبّها وتزوجها فلما خلا بها نظرت إليه وكانت بكراً، ففرّتْ إلى أمها وتفادت منه، فرام بها كُلُّ من حواليها أن تُرَدّ إليه، فأبتْ وكادت أن تموتَ، ففارقها ثم ندم، ورام أن يُراجعها فلم يمكنه، واستعان بالأبهري وغيره، فلم يقدر أحدٌ منهم على حيلةٍ في أمره، فاختلط عقلُهُ وأقام في المارستان يُعاني مدةً طويلة حتى نَقهَ وسلا وما كاد، ولقد كان إذا ذكرها يتنفسُ الصُّعداء.

وإني لأعرف جارية من ذوات المناصب والجمال والشرف من بنات القُوّاد، وقد بلغ بها حُبُّ فتىً من إخواني من أبناء الكُتاب مبلغ هيجان المرار الأسود، وكادت تختلط، واشتهر الأمر وشاع جداً حتى علمه الأباعد، إلى أن تداركت بالعلاج.

وهذا إنما يتولد عن إدمان الفكر، فإذا غلبت الفكرةُ وتمكن الخلط وتُركَ التداوي خرج الأمر عن حدّ الحبّ إلى حد الوله والجنون، وإذا أُغفل التداوي في أوائل المعاناة قوي جداً ولم